جامعة الأنبار
كلية الآداب
قسم التاريخ /الدراسات الأولية
المرحلة:الثالثة
تدريسي المادة :أ.د.عبد الستار مطلك درويش
أ.د.إيمان محمود العبيدي

المحاضرة السابعة

-مفهوم علم الكلام.

- عوامل نشأة علم الكلام.

- عوامل خارجية.

- عوامل داخلية.

-مفهوم علم الكلام:

- الكلام لغةً: يعني الأصوات المفيدة، وهو المعنى القائم في النفس الذي يعبّر عنه بالألفاظ، فيقال في نفسي كلام. وقد وردت عبارة كلام في القرآن بمعاني مختلفة ففي قوله تعالى: "قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي"، وتعني المشافهة. أما في قوله تعالى: " سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله"، فتعني التوراة. لكن الكلام في الآية التالية: " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله" يراد به القرآن. فالكلام في هذه الآيات لا يخرج عن معنى الكلام المكتوب، توراة أو قرآن، أو مشافهة بين الله و موسى عليه السلام، ولم يشر إلى المناقشة والجدل الدائر حول مسائل الاعتقاد.

اصطلاحا: تكاد تتفق معظم التعريفات التي قدمها الفلاسفة وعلماء الدين، على أن علم الكلام من شأنه أن يساعد المسلم على نصرة العقائد الدينية الواردة في الكتاب والسنة بالعقل، وأن يرد الشبه والانحرافات عن هذه العقائد. إذن فموضوع علم الكلام هو دراسة العقائد الإسلاميّة الحقّة والدفاع عنها، مقابل آراء أهل البدع والشبهات. ومنهجه: يستخدم أسلوب المحاجة الكلاميّة التي تعتمد على الأدلّة والبراهين العقليّة والنقليّة ويعتمد على المنهج الجدليّ، و يعني إسكات الخصم وإفحامه. وغايته: الدفاع عن العقائد الدينيّة، بإيراد الحجج، ودفع الشبهة. ولأن تعاريف علم الكلام كثيرة، فإننا ارتأينا أن نقدم نماذج على سبيل الذكر لا الحصر منها:

تعريف الفارابي: "صناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملة وتزييف ما خالفها بالأقاويل". إذن هناك تكامل بين الاكتساب

الناتج عن العادة، والمعبر عنه بالصناعة، والفطرة الكامنة في الفرد، وهي القابلية والاستعداد المجبول عليه الفرد، والمعبر عنها بالملكة، وعليه فلا الرغبة والميل

لوحدها ولا الاستعداد والفطرة كذلك بمعزل عن الأولى، قادرة على الإبداع وإتقان علم الكلام.

<u>تعريف ابن خلدون</u>: "هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد". نستخلص من تعريف ابن خلدون أن: موضوع علم الكلام هو العقائد الإيمانية وأصلها التوحيد، وهو بذلك يبعد الممارسات، وانّ حاملي لواء هذا العلم هم أهل السنة والجماعة فقط، وهو بهذا يعتبر باقي الفرق الإسلامية من المبتدعة الذين ما استحدث علم الكلام في الملة إلا لمواجهتهم وردهم إلى عقيدة أهل السنة والجماعة، وهنا تظهر أشعرية ابن خلدون الذي يقصر علم الكلام على الاشعرية دون غيرهم، وهو بذلك يحذو حذو الغزالي (ذو العقيدة الأشعرية) في تعريف علم الكلام. <u>كما خص علم الكلام بالمنهج العقلي دون سواه من المناهج الأخرى، التي نذكر منها:</u>

١- طريقة البرهان الكلامي: ومفادها أن المتكلم يبدأ من أقوال الخصوم ثم يصل عن طريق البرهان إلى نتائج تناقض هذه الأقوال فتبطلها، يعني أن المتكلم يحاول إبطال النتائج فيكون هذا كافيا لإبطال المقدمات التي تقدم بها الخصوم.

٢- طريقة التأويل: وفيها يحاول المتكلم تأويل الآيات المتشابهة، والتي تبدو له تناقض رأيه.

- طريقة التفويض: وتعني ترك الأمور التي تبدو فوق طور العقل إلى الله، فلو كان العقل قادر على إدراك بعض الأسرار الربانية لكان الإنسان في غنى عن الوحي والأنبياء، وقد جاء الأنبياء بالمعجزات التي يقف العقل أمامها عاجزا ونحن كمسلمين مطالبون بان نؤمن بها.

و "قد أحصى لنا الفارابي جملة من الطرق التي يتبعها، أو يتبع بعضها علماء الكلام على اختلافهم في كتابه " إحصاء العلوم" بدءا بالنص قرآنا وسنة إلى العقل ثم إلى الجمع بينهما إلى غير ذلك من المناهج وصولا حتى إلى إتباع أسلوب الكذب إذا كان في ذلك نصرة للدين بوجه ما. بينما يكتفي ابن خلدون بتحديد منهج واحد ولا ضرورة له شرعية مادام النص فيه الغنية في معرفة التوحيد".

<u>ـ عوامل نشأة علم الكلام:</u>

اولاً: عوامل خارجية: - الغزو الثقافي أو الثورة المضادة: توسع المسلمين في الجغرافيا، أدى إلى تصادمهم بتاريخ وتراث الشعوب التي دخلت هذا الدين الجديد، ولكن بتفكير وعقلية تراثها الديني، فالشعب الفارسي كان يؤمن بديانات وضعية ذات أبعاد وصبغة أخلاقية، كما هو الشأن بالنسبة للزرادشتية والمازدكية والمانوية، والمصريين والشاميين المعتنقين للديانة اليهودية والمسيحية، لم تتقبل هذه الشعوب الأوضاع الجديدة ولم ترض أن تصبح مستضعفة ومهزومة لذلك شنوا حملات قافية مضادة، من اجل التشكيك في عقيدة المسلمين وبث روح الانهزام في حياتهم، متسلحين في ذلك بالفلسفة وأساليب المنطق اليوناني. وهذا ما أكده "دي بور" عندما اعتبر أن المسيحية هي السبب الرئيسي في نشأة علم الكلام. وهو نفس الرأي الذي قال به

"فون كريمر" عندما اعتبر نشأة المعتزلة تعود إلى الفكر المسيحي، لأنّ أول فكرة تكلم فيها المعتزلة هي الجبر والاختيار وهي الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله الجدل عند نصارى الشام قبل ظهور الإسلام، وان معبد الجهني قد اخذ مقالته في القدر عن نصراني اسلم ثم تنصر.

- مسائل الفلسفة اليونانية، خاصة تأثرهم بالمذهب الذري عند الطبيعيين، لكن المسلمين استخدموه للتدليل على وجود الله وانه العلة المباشرة للحوادث، بينما استخدمه ديموقريطس وأتباعه للتدليل على قدم الذرات وانتفاء وجود خلاء بينها، كما أن الفلسفة اليونانية قد ناقشت موضوعات كالله والعالم والإنسان، فان هذه الموضوعات نفسها كانت محل دراسة علماء الكلام. إضافة إلى مشكلات البعث والالوهية والتوحيد، والتنزيه، والقضاء والقدر، والزمان والمكان... العودة للصفحة الرئيسية.

ثانياً :عوامل داخلية:

- مشكلة الخلافة أو الإمامة وأثرها في ظهور الفرق...

- القرآن الكريم:

- اهتمام القرآن بالتوحيد بل إن الإسلام هو دين التوحيد، إذ يقول تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون"، وهو-أي التوحيد- القضية الأساسية التي يدور حولها علم الكلام، فالآية السابقة هي أساس دليل التمانع عند المتكلمين.

- دعوة القرآن إلى إعمال العقل، والحكمة، والتبصر، والنظر... : "يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب"، وقوله تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون". وقوله تعالى: "فاعتبروا يا أولي الأبصار"، كما قال تعالى: "ولو ردوه إلى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم".

- الآيات المحكمة والمتشابهة، وظهور أسلوب التأويل الذي استخدمته الفرق الإسلامية للتدليل على صحة مواقفها. ولذلك يرى ابن خلدون أن علم الكلام أصيل وليس دخيل لانّ مسالة الجبر والاختيار نشأت نتيجة حب التوفيق بين الآيات المتشابهات.

ولا يمكن الحديث عن "الفكر الأشعري" بمعزل عن "علم الكلام"، وذلك على أساس أن المؤسسين الأوائل للفكر الأشعري هم الذين مثلوا قمة المتكلمين وطرحوا قضية العقل والنقل في إطار توفيقي شمولي ووسطي..

جاء علم الكلام ليواجه جملة من التحديات والإشكالات التي واجهت العقل المسلم على مستوى العقيدة، إذ إن علم الكلام يقوم شاهدا على الدور التاريخي الذي قام به المتكلمون للدفاع عن

العقيدة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار التي كانت تحوم حول هذه العقيدة بغية تشويهها وتحريفها..

تعريف علم الكلام

عرف علم الكلام بأنه "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية" كما قال ابن خلدون(١) أو هو "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، وإبراز الحجج، ودفع الشبه،" على حد تعبير الإيجي(٢).

وبتفصيل أدق، فإن علم الكلام قد عرف من حيث موضوعه: بأنه (أي علم الكلام) المعرفة المتعلقة بإدراك موضوع الإيمانيات أي الإيمان العقلي بالله تعالى بإثبات أصلين عقليين هما التوحيد والعدل وبالنبوة والشريعة على الجملة أي أصل الشريعة ..

ومن حيث المنهج: هو تأسيس الإستدلال على يقينيات عقلية، كالمدركات الحسية، والمجربات (= المشاهدة المتكررة والتجربة العملية والإختبار)، المتواترات وهي المعرفة الضرورية التي تحصل من تواتر الأخبار..

ومن حيث الغرض منه: هو إنتاج المعرفة وإدراكها موضوعيا، لينتقل الإنسان ويرتقي من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين.. عبر النظر والتفكير والحجة والبرهان..

ولعل القاسم المشترك بين جملة تلك التعريفات يتلخص في كون علم الكلام علما يقصد منه التوفيق بين النقل والعقل للإستدلال والنظر على صحة القواعد الإيمانية النقلية المتعلقة بوجود الله ذاتا وصفة وأفعالا، وبكل العوالم الغيبية..

واختلف الباحثون في سبب تسمية هذا العلم بهذا الإسم، فقيل لأن علم الكلام يتناول ضمن مباحثه قضية "كلام الله"، وهي أهم مقولة كلامية.. أو لأن الناس اختلفت مواقفهم تجاه هذا العلم، فمنهم من تحفظ في خوض غمار هذا العلم بحجة تناوله لقضايا يقصر العقل عن إدراكها.. ومنهم من تكلم في هذه الغيبيات وتسموا بالمتكلمين.. أو لأن أي :علم الكلام يتمحور حول قضايا تتعلق بالكلام نظريا لا واقعيا..

إشكالية الخلافة السياسية وظهور الفرق الكلامية

إن المشكل السياسي الذي أعقب أحداث الفتنة الكبرى، وما صاحب ذلك من صراعات وانقسامات أفرز فرقا وتيارات سياسية تبنت في البداية مواقف سياسية تجاه مؤسسة الخلافة والحكم، سرعان ما تحولت هذه المواقف إلى طروحات نظرية. وكان موضوع (الكفر والإيمان) أول موضوع يطرح للمساءلة وللنقاش النظري الكلامي. هذه النقاشات النظرية أفرزت فرقا كلامية دينية لها أفكارها، ومبادئها، ونظرياتها، وطرق دفاعها عنها.

ومن أبرز تلك الفرق:

- الخوارج

ظهرت فرقة الخوارج بعد رفض مجموعة من أتباع علي التحكيم بينه وبين معاوية، بعد معركة صفين. فرقة كلامية منطلقها الأساسي هو أن الإيمان "تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح" وأي إخلال بشرط من هذه الشروط الثلاثة يؤدي بصاحبه إلى الكفر.. ومن ثم حكمت على مرتكب الكبيرة بالكفر..

ـ المرجئة

هذه الفرقة التزمت بمبدأ الحياد تجاه المشكلة السياسية، أما على مستوى التنظير فقد حددت الإيمان بأنه تصديق بالقلب فقط وبذلك لا تنفع مع الكفر طاعة كما لا تضر مع الإيمان معصية(٣). ومن ثم فإنها لم تكن لتكفر مرتكب الكبيرة.
لقد مثلت مختلف هذه الفرق أنساقا فكرية لها مبادؤها ومنطلقاتها وأهدافها. وسعت الدولة الأموية إلى دعم بعض الطروحات التي تخدم أهدافها وأيديولوجيتها مثل فكرة الإرجاء، وفكرة الجبر، وهما الفكرتان اللتان استغلتهما الدولة لتبرير انزلاقاتها السياسية والدينية..
وكانت هذه الظرفية الاجتماعية سببا لطرح موضوع العدل الإلهي طرحا نظريا ممنهجا، مما أفرز تيارات مختلفة ومذاهب متنوعة أدلت جميعها بدلوها في مناقشة موضوعات نظرية ممنهجة ومنظمة تمحورت أساسا حول مفهوم التوحيد والتنزيه المطلق للذات الإلهية.

ـ المعتزلة وعلم الكلام

أفرزت مختلف العوامل السابقة، إضافة إلى عوامل أخرى، طائفة كلامية كان هدفها الأساس مواجهة مختلف التحديات والشبهات التي ألصقت بالعقيدة الإسلامية، ومن ثم سعت إلى إعادة تأسيس مفهوم جديد للتوحيد يقوم على مبدإ التنزيه المطلق للذات الإلهية، وتصور خاص للعدل الإلهي.. وهي فرقة المعتزلة، التي تمكنت من أن تؤسس إطارا فكريا متناسقا ومنسجما.. وخلاصة أمر ظهورهم جاء تدريجيا حسب المراحل التالية: ظهرت في أواخر الخلافة الراشدة مع بداية زمن الأمويين حيث تطورت ونضجت جل مقولاتهم الكلامية. ومع بداية عصر العباسيين شهدت ذروة القوة والهيمنة (٢٢٧-١٩٣ هـ) حتى زمن المتوكل، وبعد ذلك عرف هذا المذهب مرحلة الضعف والانحطاط..
واشتهر المعتزلة بأصولهم العقدية المعروفة، وهي: التوحيد، والعدل الإلهي، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ـ الأشاعرة وعلم الكلام

حينما تراجع الإمتداد والتوسع المعتزلي بسبب تحول سياسة الدولة العباسية تجاههم، خصوصا في زمن المتوكل والواثق والمعتصم.. أثر ذلك سلبا على المذهب الاعتزالي، فبدأ انحسار الإتجاه المعتزلي وتقلص شعبيته، في الوقت ذاته الذي انفصل الأشعري وأسس مذهبه العقدي الجديد، ليكون وسطا بين التوجه المعتزلي "المغالي في العقلانية"، والتوجه السني "المغالي في التشبث بحرفية النص". فالظرفية التاريخية التي سبقت ظهور المذهب الأشعري كانت فترة تاريخية متميزة في التاريخ الإسلامي، حيث وصلت بعض الفرق والمذاهب إلى درجة كبيرة من الغلو والتطرف في المعتقدات والأفكار.. لذلك وجدت الإتجاهات التي تبنت المواقف التوفيقية أرضية خصبة للامتداد والتوسع..
وهذا يعني أن الظرفية السياسية والثقافية كان لها الدور الأبرز في بروز هذا الفكر الجديد، وكأنه فكر وسطي-معتدل يشتمل بكيفية أو بأخرى على جوانب عقلانية وأخرى سنية.. جوانب منحته قدرة على الاستمرارية في ظل السلطة العباسية التي وفرت له مناخا مهما للتأقلم والتكيف.